مبتكرات العلماء في إظهار وجوه إعجاز القرآن

أ. عبد المطلب بوغرارة
جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية –قسنطينة–

ملخص البحث:

لقد بذل العلماء قُصارى جهدهم في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم وذلك منهم أداءً لحق كتاب الله عزّ وجلّ عليهم، فمنذ أن ظهر القول بالصرفة في القرآن الكريم الذي تولاه النظام المعتزلي وسبق إليه، حفّز غيره من العلماء للكشف عن حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم.

فجاء الخطابي منبهًا على قضية تأثير القرآن الكريم في التالي والمستمع إليه على حدٍّ سواء، أمَّا النبهاني فقد نبه على مسألة عدم سريان إعجاز القرآن في منسوخ التلاوة كخاصة من خواص القرآن المنسوخ تلاوة بخلاف المنسوخ الحكم الثابت التلاوة الذي يبقى الإعجاز ساريا فيه لأجل أنه يتلى وحسبُ.

وأمَّا الطاهر ابن عاشور فأوقفنا على مراتب دلالات القرآن، ومدى تأثيرها في الإعجاز القرآني أن ذلك من عيون نكت بلاغة القرآن، ثم جاء تلميذه ابن باديس ليوضح لنا وجها من وجوه إعجاز القرآن من خلال تفريق القرآن وتنزله منجما على حسب الداعي إلى النزول، كل ذلك في سلسلة ممتدة من العصور المتقدمة وتتواصل حتى تبلغ عصورا متأخرة، في جهود علمية يشدُّ بعضها بأيدي بعض، لتصنع هذا الصرح العلمي المسمى بوجوه إعجاز القرآن الكريم.

ولأجل ذلك كله جاء هذا البحث لبيان أهم الإضافات والمبتكرات التي كانت من أولئك الأعلام، فكانت لَبِنَاتٍ مهمة في صرح إعجاز القرآن الذي لا يزال يطلب الكمال لتمام بنائه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Research summary:

The scholars have made tremendous efforts to state the aspects of the miracles of the Quran as to perform the right of the Book of Allah upon them. When the Mu'tazili "Nadham" , who was the first to talk about the "Sarfa"in the Quran, other scholars were very motivated to discover more aspects of the miracles of the Quran.The "Khatabi" pointed out the influence of the Quran on both of the reciter and the listener equally. However, "Al Nabhani", emphasized that the matter of the Miracle of the Quran with non-abrogated recitation as characteristic of the non-abrogated recited Quran contrary to the abrogated Quran which is being recited that has a miracle aspect because of its recitation. As for "Tahr Achour", who talked about the levels of the connotations of the Quran and their status in regards the aspect of the miracles of the Quran. Then his student "Ibn Badiss" came to show us one aspect of the miracle of the Quran and how it was revealed sporadically depending on the need for it. All of this, have been happening from early ages to later eras as a tenacious scientific efforts to make this branch of science which is called "the Aspects of the miracles of the Quran"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل كتابه فجعله **معجزةً للعالمين**، دائمةً أبد الآبدين، جاء به متحديًّا خلقه من الجِنَّة والناس أجمعين، **فشُدِهوا** لفصاحته وبيانه المتين، وأشهد أن الله هو الحق المبين، وأن محمدا عبده ورسوله المبلغ الأمين، صلى الله عليه في الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، ثم أمَّا بعدُ:

فمن المجالات التي كثرت عناية الأمة بها مجال "**إعجاز القرآن الكريم**"، مع أن الكتابة فيه لم تكن مبكرة كالتفسير ونحوه، إلا أنه مجالٌ كثر النظر فيه والبحث، حتى جُرِّدت فيه الأسفار الصغار والكبار لغرض الإحاطة به بحثا وعلمًا وتأصيلاً.

وإن النظر في إعجاز القرآن كان له مجالات متعددة، ولعل أهمها على الإطلاق العمل على بيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لذا فإننا نجد العلماء الذين خاضوا في بيان مباحث إعجاز القرآن كان الأمر الذي يشغلهم ويأخذ جزءاً لا بأس به من كتاباتهم وتحريراتهم، ما كان راجعا إلى **بيان أوجه إعجاز القرآن**، وقد تنوعت مذاهبهم وآراؤهم في ذلك المجال الصعب بيانه، الغائر قعرُه.

يقول ابن تيمية: « ولهذا ذمَّ العلماء الراسخون والمؤمنون الصادقون من اقتصر في إعجاز القرآن على ما فيه من الإعجاز من جهة لفظه أو تأليفه أو أسلوبه، وقالوا: هذا وإن كان معجزا، فنسبته إلى ما في معانيه من الإعجاز نسبة الجسد من الروح، ومحاسن الخَلْقِ إلى محاسن الخُلُق، وهو يشبه مَن عظَّم النبي صلى الله عليه وسلم بمحاسن خَلْقه وبدنه، ولم يعلم ما شرَّف الله به قلبه الذي هو أشرفُ القلوب ونفسَه التي هي أزكى النفوس، من الأمور التي تعجز القلوب والألسنة عن كمال معرفتها وصفتها، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: " إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير القلوب، فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب أصحابه بعد قلبه، فوجد قلوبهم خير القلوب، فاختارهم لصحبة نبيه وإقامة دينه"[1]...»

(1)- أخرجه أحمد في المسند مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م. برقم 3600، (3/ ص 505)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأمر الذي لفت نظري في هذا الباب، بعد مطالعتي على بعض ما كتبه العلماء في أوجه الإعجاز، أنني وقفت على كلمات لهم يدعون فيها **السبق إلى وجوه من الإعجاز لم يسبقوا إليها**، فأردتُ، بيانها من خلال مقالي هذا، لنرى:

هل هذه المبتكرات حقيقة أم دعوى؟ فإن كانت حقيقة فمن هم الأعلام الذين كان منهم السبق؟ وهل هو أمرٌ مختصٌّ بمن تقدم، أم أنه مِن المتأخرين مَن وقف على أشياء لم يهتدِ إليها المتقدمون؟

كل هذه الإشكالات وغيرها، سأحاول من خلال هذه الكتابة الاهتداء بحول الله إلى الإجابة عنها، والتي وسمتها بـ: **"مبتكرات العلماء في وجوه إعجاز القرآن"**، واقتصرتُ في ذلك على خمسة أعلام وهم: إبراهيم النظام، والخطابي، والنبهاني، وابن عاشور، وابن باديس.

وتكمن أهمية الموضوع في الوقوف على جهود علماء الأمة في بيان وجوه إعجاز القرآن، والاجتهاد في ذلك على مرِّ العصور، ومدى اشتغال العلماء بهذه القضية الشائكة.

أولا: وجه إعجاز القرآن عند النظام (الإعجاز بالصرفة):

القول بالصرفة كان ولا يزال قضيةً يطرحها علماء الإعجاز في ثنايا كتاباتهم؛ فمن مستحسن لها ومن مستهجن، ولعلَّ أقدم وأشهر من نُسب إليه القول بالصرفة[1]، هو ابراهيم بن سيار النظام[2]، أحد رؤوس الاعتزال، وبغض النظر عن كونه هو من سبق إليه أو غيره، فإن القول بالصرفة كوجه من وجوه الإعجاز يعدُّ ابتكارا في هذا الباب، والدافع إليه البحث عن السبب في كون القرآن معجزا.

ولقد كان القول بالصَّرفة في درس الإعجاز, حدثًا مهمًا ووجها خطيرًا, منه ابتدأ العلماء الكلام عن "إعجاز القرآن الكريم"، والتأصيل لدرسه والبيان في مباحثه, فيمكننا القول بأن الصَّرفة كما كان شرا في نفسه, فإنه قد انجر عنه خير كثير, وهذه من حكم الله عز وجل في قضاء الشر وتقديره على الخلق,

---

(1) – لا يوجد شيء محسوس يثبت صدق نسبة الصرفة للنظام، ولكن العلماء أطبقوا على نسبتها إليه، وقد نسبها إليه بعض خاصته كالجاحظ، وأول من نسبها له صراحة أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين مقالات الإسلاميين (ص 225)، وينظر: القول بالصرفة –عرض ونقد–، تأليف، الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي العربية السعودية، الطبعة الأولى: سنة 1432هـ، (ص 29-30).

(2) – إبراهيم بن سيار، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف توفي سنة 231هـ، ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (735/5)، تاريخ بغداد (623/6).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإنه ﷻ عليم حكيم, يقضي بالشر لينشأ عنه الخير, وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف:«...والشرُّ ليس إليك»[1].

والذي يُشكل في الصرفة أن الناس في تفسيرها في اضطراب واختلاف كبيريْنِ، ولكن أشهر ما فُسِّرت به الصَّرفة أنها: « الحيْلُولة بين العرب وبين معارضته – القرآن- وتحديه، فقد صرف الله هممهم عن معارضته والقول على منواله، ولو خُلِّيَ بينهم وبينه لأتوْا بمثل القرآن في بلاغته وفصاحته»[2].

ثم إن بعض الباحثين جعل للصرفة معنيين مقبولا ومردودا، فقال: « للصرفة معنيان رئيسان أحدهما مردود و الآخر مقبول:

فالمردود هو الزعم بأن العرب لو لم تُصرف عن المعارضة لجاءت بمثل القرآن.

والمقبول هو أن العرب قد انصرفت عن المعارضة بعد تيقنها العجز عن ذلك.

فيحمل كلام المعارضين للقول بالصرفة على أنهم يعارضون المعنى المردود الذي يستلزم الطعن في بلاغة القرآن الذاتية الداخلية، وإن كان القائلون بالصرفة لا يقولون بنفي إعجاز القرآن بنظمه ويعارض ما فهمه المفسرون من آيات التحدي في القرآن الكريم.

ويُحمل كلام المجيزين لها على المعنى المقبول الذي ذهب إليه الجاحظ ومن وافقه من العلماء والباحثين كالرماني والإسفراييني، أو أنه قَبِلَ بعضهم هذا القول في جدالهم للمخالفين على سبيل التنزل مع الخصم، لا على سبيل الموافقة على هذا القول والمذهب كما فعل ابن تيمية وابن كثير»[3]

ومهما يكن من شيء فإن ظهور الصرفة من قِبَل النَّظام، كان لها الداعي الكبير للعلماء فكتبوا في موافقتها، أو نقضها، وجرتهم للبحث عن وجوه الإعجاز التي يكون لها من الحظوة، ما لا ينبغي أن يكون للصرفة التي قد تُذهب من القرآن كل مزية اختص بها.

فهذا الجاحظ أحد أقران النظام، وصاحبه في الاعتزال، كان أولُ من استفزته الصَّرفة، فأنشأ لنقضها كتابا كاملاً، يقول الجاحظ: « فكتبتُ لك كتابا أجهدتُ فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي، في الاحتجاج للقرآن، والردِّ على كلِّ طعَّانٍ، فلم أدع في مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا

---

(1) – المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ – 1990م، برقم 3384، من رواية حذيفة بن اليمان، في باب تفسير سورة بني إسرائيل ج2 ص 395، والبيهقي في شعب الإيمان برقم: 3133 باب تحسين الصلاة والإكثار منها: (3/ص 140)، وعبد الرزاق في المصنف برقم: 20073، باب القدر (11/ ص 114).

(2) القول بالصرفة في إعجاز القرآن – عرض ونقد–، (ص 6).

(3) – القول بالصرفة، (ص 99-100).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لحشوي، ولا لكافر مبادٍ، ولا لمنافق مقموع، **ولا لأصحاب النظَّام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حقٌ وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيلٌ وليس ببرهانٍ ولا دلالةٍ**»[1].

وقد نبَّه الأستاذ محمود شاكر في مداخل إعجاز القرآن على هذه النقطة قائلا: « وهاتان الكلمتان اللّتان كتبهما أبو عثمان – يريد بهما ما ذكره الجاحظ في كتابه حجج النبوة في رد الإعجاز إلى نظم القرآن وطبعه وتأليفه مخرجه – تدلان دلالة ظاهرة أن الخُلَّة بين الخليلين قد تهتكت، وأنَّ أبا عثمان قد رمى بعقل خليله أبي إسحاق النَّظام تحت قدميه، ووطئه وطأة المتثاقل»[2]

أما بعد الجاحظ، فلا يكاد يخلو كتاب من الكتب التي فيها حديث عن قضية إعجاز القرآن، إلا وللصرفة فيه كلامٌ يختص بها، إما قبولا لها أو رفضا وهو الأكثر.

و من الجدير بالتنبيه في هذا الباب أن يقال: « إن القول بالصرفة لم يَقُل القائلون به طعناً في القرآن الكريم وإلحاداً فيه، ورداً وإنكارا لإعجازه،... وإنما كما قال محمد رشيد رضا بأنه " رأيُ كسول أحبَّ أن يُريح نفسه من عناء البحث، وإجالة قَدح الفكر في هذا الأمر" ...، وقد قال محمد عبد الله دراز " هذا القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافًا في الجملة بصحة الإعجاز إلاّ أنه لا يقول به إلا أعجميٌّ وشبهه ممن لم يذقْ للبلاغة طعماً، ولذلك لم يُتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحدٌ من علماء العربية، وهو يُعدُّ خلاف ما عرف العرب من أنفسهم "»[3]

المطلب الثاني: وجه إعجاز القرآن عند الخطابي (الإعجاز التأثيري):

إن القول بإعجاز القرآن من جهة تأثيره على السامع أمرٌ جليٌّ ظاهر، قد عُلم ذلك من القرآن منذ نزل على العرب فسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم فوقع من أنفسها –العرب– وهي التي بلغت من البيان المبلغ الذي لا ينازعها عليه ناطق ألبته موقعًا لم تستطع أن تكتمه، فهذا جبير بن مطعم > «أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب: بالطور، ، فلما بلغ الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور35: . . . قال كاد قلبي يطير »[4]، وفي رواية: "وذلك أول ما دخل الإيمان قلبي".

وعن عتبة بن ربيعة «أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليه: حم فصلت. ..إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ

(1) – رسائل الجاحظ، أبو عثمان الجاحظ، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، مصر، الطبعة الأولى: 1399هـ-1979م، (3/ ص287).

(2) – مداخل إعجاز القرآن، تأليف: أبو فهر محمود شاكر دار المدني بجدة، الطبعة الأولى 1423هـ /2002 م، (ص65).

(3) - نقلا عن كتاب: القول بالصرفة، (ص 105-106).

(4) – أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن برقم: (4854)، و مسلم في كتاب الصلاة برقم: (463)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ﭽ فصلت: 13، فأمسك عتبة بيده على فِي النبي صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكفَّ». وفي رواية: «فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبةُ مصغٍ ملقٍ يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقام عتبة لا يدري بما يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم، وقال: لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له»[1].

وذلك الأعرابي لما سمع القرآن قال للنبي صلى الله عليه وسلم: « فعلمني. فعلمه ﭽ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﭼ الإخلاص: 1، قال: زدني فما سمعت في البسيط ولا في الوجيز أحسن من هذا. قال " يا أعرابي إن هذا كلام الله»[2]

بل إنَّ هذا التأثير جاءت الإشارات في القرآن الكريم أنه لم يكن من الإنس فقط، بل حتى الجن لما سمعته قالت: ﭽ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﭼ الجن: 1، وقال الله عز وجل عن الجبال لو قدر سماعها للقرآن: ﭽ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﭼ الحشر: 21.

يقول محمد عطا أحمد يوسف في تعريفه للإعجاز التأثيري: ‹‹هو وجه من وجوه إعجاز القرآن، أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر وباطن على سامعه أو قارئه، ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته، ودفعه، ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به››[3].

‹‹ وهذا الأخير – الإعجاز التأثيري–، جعله أبو سليمان حمد الخطابي قائما بذاته، وبيّن أصوله التي ترتبط بالقرآن، وربما رواه الصحابة...››[4]

إذن الكشف عن هذا الوجه كان السبق فيه للخطابي في رسالته " القول في بيان إعجاز القرآن"، وقد ذكر أنه وجهٌ لا يكاد يعرفه إلا الشواذ من الناس، ولم يذكر لنا من هؤلاء ممن لو سمى لنا

(1) – الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1401هـ. (ص 268)

(2) – البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م، سنة النشر: 1424هـ / 2003م. (9/ ص 38)

(3) – مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثالثة عشرة، العدد السادس والثلاثون، شعبان 1419هـ– ديسمبر 1998، مقال بعنوان: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم –دراسة تاريخية وتطبيقية من القرآن والسنة النبوية– د. محمد عطا أحمد بوسف، (ص20).

(4) – المصدر السابق، (ص 22).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واحدا لعرفنا أنه السابق إلى ذلك، وما دام أنه لم يذكره، فيبقى الأمر في السبق إلى ذلك منوطا به، إذ قد يحتمل أنه قال ذلك من باب التواضع لا غير، وهذا لا يَبعد على رجل صاحب دين وتقوى كالخطابي.

يقول الخطابي: « قلت: في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم؛ وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السّمع خلُص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروْعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعةً قد عراها الوَجِيبُ والقلق، وتغشَّاها الخوف والفرق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمرتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكُفرهم إيماناً»[1].

أما العلماء من بعد الخطابي فقد تواردوا في الجملة على استحسان هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم والإشادة به.

ومن هؤلاء **القاضي عياض** حيث أشاد بهذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن قائلا: «ومنها الرَّوعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنامة خطره وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا كما قال تعالى ويودون انقطاعه لكراهتهم له...

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به قال الله تعالى ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الزمر: 23، وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: 21، الآية ويدلُّ على أن هذا شيءٌ خُصَّ به أنَّه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره كما رُوي عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي فقيل له: مما بكيت؟ قال: للشَّجا والنَّظم.

(1) – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تأليف: الرماني والخطابي والجرجاني، حققها وعلق عليها محمد خلف الله و محمد زغلول إسلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر 1976م، (ص 70).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده فمنهم من أسلم لها لأول وهلةٍ وآمن به ومنهم من كفر»[1].

ومنهم أيضا **الزركشي** في البرهان إذ يقول في الصدد أيضًا: « فمنها: الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرين والجاحدين ثم إن سامعه إن كان مؤمنا به بداخله روعة في أول سماعه وخشية ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشةً إليه ومحبة له وإن كان جاحدا وجد فيه مع تلك الروعة نفورا وعيا لانقطاع مادته بحسن سمعه»[2]

وأمَّا الزرقاني، فيتحدث عن هذا الوجه من وجوه الإعجاز قائلا: « الوجه الرابع عشر: تأثير القرآن ونجاحه: ومعنى هذا أن القرآن بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغًا خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والنَّاس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذي جاء به القرآن والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب ما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهدٍ من عهود التَّاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوي بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس والحكم النافذ على العواطف والميول ما يصدُّ الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم التي توارثوها وعبادتهم التي ألفوها وأخلاقهم التي نشأوا عليها وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي هدم تلك الموروثات فيهم وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم...

هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نهضته وإن شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته والروح الساري لإحياء العالم بدعوته وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هو النفوس والمشاعر وملك القلوب والعقول وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحرب الجائحة لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح بما لم يعهد له نظير في أية نهضة من النهضات!»[3].

فهذه الجمهرة من أهل العلم في آخرين كثرتهم كاثرة قد تواطئوا جميعا على ذكر هذا الوجه، واستحسنوه، والفضل والسبق للخطابي. على حد قول الأول:

---

(1) – الشفا بتعريف حقوق المصطفى – مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي، الحاشية لـ: أحمد بن محمد الشمني، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع بيروت، عام النشر: 1409 هـ - 1988 م، (1/ص 273-274)

(2) – البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (2/ ص 107)

(3) – مناهل العرفان في علوم القرآن، المؤلف: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة. (2/ص 406-407)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً إليها شفيت النفس قبل التندمِ

ولكن بكت قبلي فهيجني البكا بكاها فقلت: الفضل للمتقدمِ[1]

المطلب الثالث: وجه إعجاز القرآن عند يوسف النبهاني (الإعجاز بغير منسوخ التلاوة)

وههنا وجه من الإعجاز مليح لطيف المأخذ، انتبه إليه بعض الباحثين، فاستحسنه وأورده في جملة ما أورد من وجوه الإعجاز، فاستصوبه ورجَّحه، وهو ما ذكره يوسف بن اسماعيل النبهاني: « **قد تراءى لي منذ حين وجه حسن من وجوه إعجاز القرآن** ولحقارة نفسي لم أجسر على الكلام فيه، وقد ترجح عندي الآن الكلام في ذلك فإن كان صوابا فمن الله تعالى المنعم على من يشاء بمن شاء، وإن كان خطأ فأنا أهلٌ لذلك وأسأل الله العفو عني وهو:

أن مفردات القرآن وتراكيبه وأساليبه مع كونها في أقصى درجات الفصاحة والبلاغة قد ألبسه الله سبحانه رونقًا مخصوصًا كالحلة على لابسها به أعجز الخلق، فالإعجاز حينئذ يتعلق بديباجة ألفاظه لا معانيه، فما دام القرآن مشروع التلاوة غير منسوخها يكون ذلك الرونق باقيًا والإعجاز به حاصلاً، وإذا نُسخت تلاوته يزول ذلك الرونق فيزول بزواله الإعجاز ولو كان الحكم باقيا لم يُنسخ؛ مثال ذلك الآيات المنسوخة تلاوتها مع بقاء حكمها كآية: «الشيخة والشيخة إذا زنيا فارجموا كل واحد منهما ألبته»[2]، فإنَّا بمجرد قراءتها نُدرك أنها عارية من رونق القرآن وما ذاك إلا أن الله سبحانه وتعالى سلبها ذلك الرونق البديع المعجز بمجرد نسخه لتلاوتها فصارت كالأحاديث القدسية التي لا إعجاز فيها ولم تُشرع تلاوتها مع صحة أحكامها، ونسبتها إلى الله تعالى، كما إنا نرى الآيات المنسوخة أحكامها دون تلاوتها عليها رونق القرآن وإعجازه، كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: 180، فإن حكمها نسَخَ آية المواريث، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «لا وصية لوارث»[3]، ومع نسخ حكمها دون تلاوتها باقٍ رونقها ظاهرٌ إعجازها، لا فرق في ذلك بينها وبين ما لم تُنسخ تلاوته وحكمه من الآيات، فظهر من هذا أن إعجاز القرآن حاصلٌ برونقه المتعلق بديباجة لفظه الملازم لمشروعية التلاوة، وإذا بقيت بقي، وإذا زالت زال، سواءٌ نُسخ الحكم أم لم يُنسخ»[4]

---

(1)- البيتان لتميم بن أبيّ بن مقبل، وهما من البحر الطويل، طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الثانية، دار المعارف (ص 50)

(2) أخرجه الطيالسي في مسنده، برقم: 542.

(3) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى، طبعة الأعظمي: باب الوصايا برقم: 2300، ج6 ص45.

(4) – حجة الله على العالمين، يوسف بن اسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية –بيروت، لبنان–، الطبعة الأولى، 1417هـ، (ص237).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد ألمح إلى ذلك أيضا الباقلاني في أثناء رده على من زعم أن أُبيًّا بن كعب رضي الله عنه جعل دعاء القنوت من القرآن الكريم، فأبطل الباقلاني ذلك بقوله: « ...ولأننا أيضاً قد عَلِمنا قصورَ نظمه في البلاغة والفصاحة عن رتبة القرآن وإن كان أفصح وأوجز وأحسنَ من كثيرٍ من كلام العرب، وإنما يَعلمُ ذلك ويتأملُه أهلُ العلم والفصاحة وأهلُ البيانِ والبلاغةِ والمعرفةِ بنظوم الكلام وأوزانِه وموقع معانيه، وشرفِ تأليفه ومعانيه، ومباينته لسائرِ ما قَصُرَ عن بلاغته»[1].

ثم زاد الأمر بيانا فقال: « ففي هذا نظر! أعني قولهم إنه معجز، لأن نظمه مباين لنظم القرآن وغير خارج عن وزن كلام العرب، ولكن يحتاجُ ذلك إلى لطيفِ فكرٍ وتدبُر ونقلٍ وتأملٍ.

وما يُعلَم أن أحداً من الأمَّة يُنكِرُ أن لا يكونَ العلمُ بكون جميع القرآن معجزاً مما يُعلم بالبَدِيهةِ وبأول سماعٍ حتى يعرف أن دعاءَ القنوت ليس بمُعجِزٍ كما يَعرِفُ أنه كلامَ أعيى الناسِ وألكَنهم ليس بمعجز، ويعرفُ أن الناسَ والفَلَقَ مُعجِزتانِ بأولِ سماعٍ لهما، كما يَعرِفُ بأن البقرةَ وآل عمران مُعجز باهِرٌ بأول سماع، بل لا يُنكر أن يكونَ مما ليس بمُعجزٍ من الكلام ما يكادُ أن يخفى ويُقارب، فيحتاج إلى تأمل، وأن بعضَ ما هو مُعجز إذا كان يسيراً قليلاً كالناس و ژإِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ژ الكوثر: 1، احتاج في العلمِ بأَنه مُعجِزٌ إلى نظرٍ دقيقٍ وفكرٍ وتحر بقدرِ شَرَفِ نظم الكلام ومعانيه، وعدد ما يشتملُ عليه من المعاني الصحيحةِ والمقاصدِ الكثيرة»[2].

وذكر في ما جاء أنه من القرآن كما في صحيح مسلم عن الأسود عن أبيه، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[3]، قال: « لو أن لابنِ آدم، نظم خفيف يُباينُ وزنَ القرآنِ ويفارقه، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ سَقَطَ التعلُّق بهذهِ الأخبارِ»[4]

وأوضح قائلا: « وقد زعمَ أيضًا بعضُ الناس أن دعاءَ القنوتِ مُعجزٌ قاهر من كلام رسولِ الله صلى الله عليه، وإنه لا يمتنعُ أن يكونَ المعَجزُ من الكلام والنظم ضربَين:

أحدُهما: كلامُ الله، والآخرُ: كلام لرسوله.

وفي هذا نظرٌ أيضاً، لأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما ظهر عندَ التحدي بمثلِ شيءٍ من كلامه، ولا ادعى ذلك قطُّ لنفسه، ولو كان ذلك كذلك لظهرَ ذلك عنه وعُلِمَ من حاله، ولكان ذلك زيادةً في حُجته، ولأن ذلك أيضا لو فعلَه عند قومٍ لعادَ بتهمته ودخولِ الشُبهة على سامع كلامِ الله منه، وظنه أنه من بلاغته هو صلى الله عليه وسلم ونظمه، ورجع بالشك في ثبوته، والله تعالى قد حماهُ

---

(1)- الانتصار للقرآن، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى 1422 هـ - 2001 م. (1/ص 268).

(2) – المصدر نفسه (1/ص275- 276)

(3) – أخرجه مسلم في صحيحه: باب لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ لاَبْتَغَى ثَالِثًا، برقم: 2466.

(4) - الانتصار للقرآن للباقلاني (2/ص 430)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مما هو دون ذلك من قول الشعر المعروف عندَهم، ومن أن يَخُط كتاباً أو يتلُوَه قبلَ نبوته، لئلا يظنوا أنه من تقوله وأنَّه افتراه ونَظَمَه، أو أنه مما وجده في الكتبِ ولُقنَه.

ولأجل أن تأملَ كلام القُنوت ينبي مَن عرفَهُ أنه ليس بمُعجِز البشر عن الإتيانِ بمثله وإن كان من فصيح الكلام و وَجِيزِه وبليغه، فوجَبَ أنه لا معنى لهذا القول ولا الذي قبلَه»[1].

وقد رأيتُ أن الطاهر بن عاشور في مقدمات تفسيره، وفي المقدمة التي جعلها لإعجاز القرآن، ذكر هذا الوجه من الإعجاز في معرض حديثه عن كون القرآن معجز من جهة بلوغه «في درجات مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله»[2]، فيقول: « وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة في المصاحف فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدي بالإتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود»[3].

ولعله يمكن أن نقف على إشارة وإن كانت غير ظاهرة من كلام القاضي عبد الجبار المعتزلي، إلا أنها قريبة من هذا المعنى وشبيهة به، وذلك قوله: « ...لأنه قد يعرف القرآن وينقله من لا يحفظه جميعه، إذا كان المعلوم من حاله أنه يميزه من غيره، لما يختص به من صفاته، وهذا ظاهرٌ فيمن ينقل الخطب، والأخبار والسير، أنهم قد ينقلون ذلك ويتواتر نقلهم، وإن لم يسردوه حفظا، إذا ميزوه من غيره، عند استحضاره والنظر فيه، وقد نجد الصبي الذي لم يستكمل حفظ القرآن يعرف القرآن، ويميزه من الأشعار وغيرها، وإن لم يكن حافظا له...»[4]

ومن خلال الذي سبق، وبإثر تواطئ هؤلاء العلماء على اعتبار هذا الوجه وجهًا من أوجه الإعجاز، يجعل له كل ذلك مكانا من القبول غير مردود، غير أن الذي جعلني أنسب القول للنبهاني دون من تقدمه أمران هما:

أمَّا الأمر الأول فإنه في قوله: « ... قد تراءى لي منذ حين وجه حسن من وجوه إعجاز القرآن ولحقارة نفسي لم أجسر على الكلام فيه...»، كالكناية على السبق لذلك، وإلا لو كان قد وقف على شيء من ذلك ممن سبقه إليه لنسب ذلك إلى من تقدمه.

---

(1) – الانتصار للقرآن، للباقلاني، (1/ص 276-277)

(2) – التحرير والتنوير . الطبعة التونسية، المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار النشر : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – 1997 م.، (1/ص 104)

(3) – المصدر نفسه (1/ ص102)

(4) – المغني في أبواب التوحيد والعدل، 16- 160.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأمر الثاني: أن من تقدم من العلماء في ذكر هذا الوجه كما تقدم كالباقلاني، القاضي عبد الجبار، وربما وُجِد غيرهم، لكن كل هؤلاء كان ذكرهم لهذا الوجه عارضا وليس مقصودا، ولا مفردا بالذكر، وربما لعدِّهم ذلك مندرجًا تحت ما سمي بالإعجاز التأثيري الذي سبق بيانه عند الخطابي.

المطلب الرابع: وجه الإعجاز عند الطاهر بن عاشور (مراتب دلالات القرآن):

أمَّا الطَّاهر بن عاشور، فإنه ادَّعى لنفسه دعوى في مقدمات تفسيره، وهي العاشرة منهن، التي جعلها خالصة للحديث عن إعجاز القرآن[1]، إذ يقول: « ولعلّك تجد في هذه المقدمة أصولاً ونكتًا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني ، والرُّماني ، وعبد القاهر ، والخطابي ، وعياض ، والسكاكي ، فكونوا منها بالمرصاد ، وافلوا عنها كما يُفلى عن النار الرماد»[2].

ومن يقرأ مقدمة ابن عاشور هذه يجد له من الصدق في دعواه السبق إلى أشياء فاتت السابقين من الذين سماهم الشيء الذي لا ينكره منصف، إذ إنه أشار ونبّه في درس الإعجاز عموما ووجوه الإعجاز على أشياء لم تُذكر من قبله، من ذلكم:

حديثه عن الدلالات في النظم القرآني، والتي جعلها دلالات أربع:

- الدلالة الوضعية التركيبية
- الدلالة البلاغية
- الدلالة المطوية
- دلالة مواقع جُمل النظم القرآني بحسب ما قبلها وما بعدها

وإليك شرح هذه الدلالات من كلام ابن عاشور نفسه، إذْ يقول: « إن نظم القرآن مبنيٌّ على وفرة الإفادة وتعدد الدِّلالة ، فجُمل القرآن:

لها **دلالتها الوضعية** التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله.

ولها **دلالتها البلاغية** التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها .

ولها **دلالتها المطويَّة** وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثُرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة.

ولها **دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها** ، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه .

(1) – التحرير والتنوير، المقدمة العاشرة الجزء الأول: من الصفحة 101 إلى الصفحة 130.

(2) – المصدر نفسه، (ص 101).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن ، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة ، وبتلك الإطالة تأتى تعدد مواقع الجمل والأغراض»[1] .

وقد وضح ابن عاشور هذا التقرير بأمثلة ذكر منها قوله ﷻ: ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ النبأ: 30-35، فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفاز في قوله: { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا } أنه الجنة، لأن الجنة مكانُ فوزٍ، ثم كان قوله { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا } ما يحتمل لضمير فيها من قوله: { لَا يَسْمَعُونَ } أن يعود إلى { وَكَأْسًا دِهَاقًا }، وتكون في للظرفية المجازية أي الملابسة أو السببية أي لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعتري شاربيها في الدنيا من اللغو واللجاج، وأن يعود إلى { ب } بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة وتكون في للظرفية الحقيقية أي لا يسمعون في الجنة كلاما لا فائدة فيه ولا كلاما مؤذيا. وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة {مَفَازاً}. ولم يؤخر { وَكَأْسًا دِهَاقًا } ولم يعقب بجملة { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا } الخ»[2].

ويرجع ابن عاشور هذا الوجه من الإعجاز إلى ما يسمَّى بالنكت البلاغية، فيقول: « ومرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسمى في عرف علماء البلاغة بالنكت البلاغية فإن بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة إيداع الكلام من هذه النكت، وبذلك تفاضل بلغاؤهم، فلما سمعوا القرآن انثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفطن لها ما لم يجد من قدرته قبلا بمثله. وأحسب أن كل بليغ منهم قد فكر في الاستعانة بزملائه من أهل اللسان فعلم ألا مبلغ بهم إلى التظاهر على الإتيان بمثل القرآن فيما عهده كل واحد من ذوق زميله، هذا كله بحسب ما بلغت إليه قريحة كل واحد ممن سمع القرآن منهم من التفطن إلى نكت القرآن وخصائصه...»[3].

وقد عدّ ابن عاشور هذه الناحية من الإعجاز هي أقوى نواحي الإعجاز، إذ بها يتحقق إعجاز أقصر سورة من القرآن.

---

(1) – المصدر نفسه، (ص 110).

(2) - التحرير والتنوير (1/ص 109)

(3)- المصدر نفسه (1/ص 109- 110)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الخامس: وجه الإعجاز عند ابن باديس (التدريج في التنزيل والتشريع):

من الميزات الثابتة للشريعة الإسلامية، وهي سيمة من سيماتها: التدرج في التشريع مراعاةً لطبائع العباد، وهو مظهر من مظاهر التيسير ورفع الحرج في الشريعة، فعنْ عائشةَ رضي الله عنهَا وهي تذْكُرُ نُزُول القُرآن قالتْ: « إنَّما نزلَ أوَّل ما نزلَ منهُ سُّورةٌ من المفصَّلِ فيها ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسلامِ نزلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزَلَ أوَّل شيءٍ: لا تشْربُوا الخمرَ لقالُوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا، ولوْ نزلَ: ولا تزْنُوا لقالوا: لا ندَعُ الزِّنا أبدًا»[1]

ويقول ابن باديس في هذا الصدد: « من محاسن هذه الشريعة المطهرة، أنها نزلت بالتدريج المناسب؛ وكما كان في تحريم الخمر؛ وكما كان في العدد المفروض عليه الثبات للعدو في آيات الأنفال؛ وكما كان في مشروعية قيام الليل في آيات سورة المزمل»[2].

إلا أن ابن باديس لاحظ أن هذا التدريج لا يكون إلا بتفريق الآيات فقال: «وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات في التنزيل»[3] .

وقال أيضا: «وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشبه تعرض، والاعتراضات ترِدُ، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشبه من رد، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، ورد الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده– ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين»[4].

ثم يخلص ابن باديس إلى أن هذا التدريج في التشريع الذي تأتى للقرآن الكريم من خلال تفريق آياته في النزول يصلُح أن يفرد وجها من وجوه إعجاز القرآن، لذلك قال: «وما كان هذا كله ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتى أنه ليصح أن **يُعَدَّ وحده وجهاً من وجوه الإعجاز**»[5].

---

(1) – أخرجه البخاري، باب تأليف القرآن، برقم: 4609.

(2) – آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس، المحقق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 م)، (1/ص 417)

(3) – المصدر نفسه (1/ص 417)

(4) – المصدر نفسه (1/ص 417-418)

(5) – آثار ابن باديس (1/ص418)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويبدو أن الزمخشري في كشافه، وهو يفسر الآية من سورة الفرقان وهي قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ الفرقان: 32، قد سبق إلى شيءٍ من ذلكم إذ قال: « يعني: أن تنزيله مفرقا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما تزل شيء منها: **أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة** ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه»[1]،

كما أنَّ الطَّاهر ابن عاشور وهو شيخ ابن باديس سبق إلى بيان هذا الوجه من الإعجاز في المقدمة الخامسة في أسباب النزول فقال: « وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على **إعجازه من ناحية الارتجال**، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين».

إلا أنه عند تأمل هذه النصوص الواردة عن الجميع، نجد أن كلام ابن باديس أشمل وأدخل في وجه إعجاز القرآن من هذه الناحية، هذا من وجه ومن وجه آخر نجد أن ما ذكره الزمخشري وابن عاشور خادمٌ لما ذكره ابن باديس الذي كان يقصد إلى الشمولية في هذا الوجه، فها هو يقول: « وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشبه تعرض، والاعتراضات تَرِدُ، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشبه من رد، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، ورد الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده– ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين»[2].

فالزمخشري أضاف مناسبة هذا التفريق في نزول القرآن، وهو أنه يكون أوفق وأنسب لتحدي العرب من أن يُتحدَوْا به جملة

وأمَّا ابن عاشور فجعل هذا التفريق في النزول أبعد لظنِّ العرب أن هذا القرآن مرتجلٌ من النبيِّ صلى الله عليه و سلم ، كيف وقد جاء في القرآن قوله عزّ وجلّ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

(1) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ (3/ص 279)

(2) – آثار ابن باديس (1/ص 417-418)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يونس: 15، وهو مأخذ غاية في الحسن.

فنخلص إلى أن الأقوال قريبة من بعضها ومأخذها واحد في الجملة إلى أن الشمولية في كلام ابن باديس جعلتنا نحكم له بالسبق إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز دون من تقدمه.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث لا بأس من الوقوف على أهم نتائجه التي توصلتُ إليها، وهي الآتية:

1- أن علماء الأمة لما فُتح لهم باب النظر في إعجاز القرآن تظافرت جهودهم في إبراز الوجوه التي كان بها القرآن معجزاً، فلم يفتؤوا يُظهرون ما تخلص له قرائح أذهانهم، مما يصلح أن يكون وجها لإعجاز القرآن..

2- أن البداية المحفزة للعلماء على بيان وجوه الإعجاز، هي تلك المقولة التي نسبها الباحثون، للنظام، وهي "الصرفة" ثم لم يزل كل عالم يقف على ما لم يقف عليه غيره، والدافع لذلك مقولة الصرفة.

3- أن قضية إعجاز القرآن، لم تكن حكرا على من تقدم، بل لا يزال إلى أزمنتنا المتأخرة من يقول في وجوه إعجاز القرآن القول الذي لم يسبقه إليه غيره، وهذا من مظاهر بركات هذا القرآن الكريم، وكون باب الاجتهاد والنظر في القرآن الكريم مفتوحا لمن تحقق في نفسه شرائط الاجتهاد.

4- أن قضية بيان وجوه إعجاز القرآن لم يزل بابها مفتوحا، يفتح الله فيه على من يشاء من عباده، فمن أنعم النظر، وأجاد التدبر اهتدى إلى ما لم يهتد إليه غيره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com